مجلة

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

الرباط

العدد الخامس عشر

1989 - 1990

التأويل النَّسَبِي (الجينيالوجي) لتاريخ شمال إفريقيا، هل يمكن تجاوزه ؟

صدقي علي ءازايكو
كلية الآداب ـ الرباط

يبدو أن كل المشاكل التي يطرحها البحث التاريخي لم تجد بعد حلولها النهائية، وكيفما كان الأمر، فالحلول التي يتوصل إليها قلما تكون نهائية، ذلك لأن المعارف التاريخية نسبية أساسا، هذا من جهة، ولأن تأثير الحاضر على الكتابة التاريخية كبير جدا من جهة أخرى. فكل مكتوب تاريخي لا يمكن أن يكون ـ نتيجة لذلك ـ الا قراءة معادة لماض يصعب احتواؤه في شموليته. قراءة تتم تحت ضغط الحاضر والاندفاع أو الإرادة الإيديولوجيين.

هذا لا يعني طبعا أن كل الدراسات التاريخية المنجزة مجردة من كل موضوعية. لأن من بينها دراسات لا تعتبر فقط مساهمة قيمة في اكتشاف ماضي الإنسانية، بل هي كذلك وسائل ساعدت على التعرف على الكيفية التي تمكن بها الإنسان من دمج ماضيه المتعدد في حاضره الدائم السير نحو المستقبل.

إن القصد من هذا العرض هو إثارة انتباه الباحثين إلى وجود إمكانية إعادة التفكير في تاريخ المغرب، وفي تاريخ شمال إفريقيا ككل، تحت أضواء جديدة. ذلك لأن التفسير النَّسَبِي أو الجينيالوجي لهذا التاريخ ينبغي ـ في نظرنا ـ الإقلاع عن اعتباره الأساس الوحيد الذي لا يناقش، لكل تاريخ الشمال الافريقي.

إن الفرضيات التي سنعرضها هنا حول هذا الموضوع، لا تطمح إلا إلى إثارة مناقشة مثمرة بين الباحثين، والدفع بهم إلى البحث عن وسائل وثائقية أخرى تغني معارفنا عن ماض لا تزال ديناميكيته العميقة مجهولة لدينا.

تحول تاريخي

يعتبر الفتح الإسلامي، رغم المصاعب الأولى الناتجة أساسا عن «الأخطاء السياسية لجيوش الفتح»،[1] يعتبر بالنسبة إلى إفريقيا الشمالية بداية تحول تاريخي لم يسبق له مثيل. هذا التحول التاريخي لم يؤثر في توجيه مستقبل الأمازيغ فحسب، بل حكم على ماضيهم بما يشبه الانمحاء التام. فتاريخ شمال إفريقيا سينقسم من الآن فصاعدا إلى عهدين يتناقضان ويتنافيان ضمن تاريخ واحد، دون أن تحدث مع ذلك قطيعة كاملة تحول دون وقوع الاستمرار الحتمي بين العهدين، وبذلك أصبح هذا التاريخ السجين الدائم للحظة الفتوحات.

إن اعتناق شمال إفريقيا للإسلام سيؤدي بالفعل إلى تغيير اتجاهها على المستوى الديني على الأقل، عن الطريق الذي كانت تنهجه في عصر الاحتلال الروماني،[2] فإذا كانت الديانة المسيحية لم تُغر إلا قسما من الأمازيغ، رغم الطول النِّسبي لفترة وجودها في إفريقيا الشمالية، فإن الإسلام - على العكس من ذلك - تمكن خلال فترة أقل، من الحصول على انخراط نسبة كبيرة من السكان، وسيصبح بعد ذلك دين الجماهير الواسعة. والأساس الإيديولوجي لكل الأنشطة السياسية، وسيصبح كذلك الأساس الذي تحدد انطلاقا منه مواقف معتنقيه تجاه الآخر. وسيكرس بصفة نهائية الصبغة الصراعية للعلاقات بين ساحلي البحر الأبيض المتوسط : أحدهما مسلم والآخر مسيحي. هذا الصراع الثنائي سيكون هو العامل المهيمن في كل تاريخ شمال إفريقيا الخارجي حتى حدود القرن العشرين.

من جهة أخرى سيؤدي اعتناق سكان إفريقيا الشمالية للدين الإسلامي إلى وقوع تغييرات مختلفة مست ميادين جد متنوعة من حياة الأمازيغ. وهكذا نجد - كمثال على ذلك - أن من بين كل أسماء المجموعات البشرية التي تعرفنا عليها بفضل المصادر الاغريقية - اللاتينية، لم تنقل إلينا المصادر الإسلامية إلا قلة قليلة منها.[3] وهكذا نلاحظ أن أسماء مثل : مور (Maures)، أوتولول (Autololes)، نوميد

1) انظر : **- Magali Morsy, «Réfléxion sur le système politique marocain dans la longue durée historique»;** in L'espace de l'Etat. Réflexions sur l'Etat au Maroc et dans le Tiers-Monde, (collectif), Rabat, 1985, p. 106.

انظر كذلك : **- A. Bel, La Religion Musulmane en Berbérie, Esquisse d'histoire et de Sociologie religieuses,** Tome I, Paris 1938, p. 401.

2) للتعرف على أسباب سرعة انتشار الإسلام في شمال إفريقيا، انظر مقال M. Morsy المشار إليه أعلاه.

3) مثل : Libyens, Mazices, Gétules...: قارن مع: J. Desanges, **Catalogue des tribus africaines de l'Antiquité classique à l'ouest du Nil,** Dakar, 1962, p. 10

(Numides)، كَارامنت (Garamantes)، ماسيل (Massyles)، ماسايسيل (Masaesyles)... قد حلت محلها أسماء أخرى مثل : زناتة وصنهاجة ومصمودة...[4] هذه الأصول الثلاثة - في زعم مؤرخينا القدامى - هي التي ينتمي إليها مجموع سكان شمال إفريقيا الأمازيغيين.[5] تغيير على المستوى الإيديولوجي، تلاه تغيير على مستوى الأسماء؛ هذه ملاحظة قد لا تفسر كل شيء. ولكن ينبغي القول بأن هذا التغيير فرض القيام بإعادة تحديد تاريخ بكالمه، تاريخ بقي تياره العميق، رغم كل شيء - وفيا لنفسه. وهكذا احتلت مسألة الأصول، مثلا، مكانة بارزة في اهتمامات الاختصاصيين مع كل ما يسبق ذلك - بطبيعة الحال - من الخلفيات الإيديولوجية الممكنة.[6] غير أننا نعتقد كذلك أن التطور الداخلي للمجموعات المعنية، يمكن أن يكون أصل انقلاب عميق في أنظمة التحالفات، أدى إلى ظهور أسماء جديدة للمجموعات مثل : إِمْصْمُوْدَنْ، إيـْزْنَاكْنْ، وَإِيـْزْنَاتْنْ.[7] هذه الأسماء الثلاثة الكبرى، كانت تطلق على كيانات سوسيولوجية وسياسية جد نشيطة، وبالفعل فإن تاريخ المغرب الإسلامي كان، في أعظم لحظاته مجدا، من صنع الأسر الثلاثة التي تنتمي، كل منها على حدة، إلى تلك الكيانات الثلاثة.

4) عند مقارنة المصادر الإسلامية بالمصادر الاغريقية - اللا تينية، يلاحظ أن هذه الأخيرة، لا تحتوي على تفاصيل كافية عن المجموعات البشرية وتقسيماتها في شمال إفريقيا. إن كثرة المادة النسبية المتعلقة بالأمازيغ في الأدب التاريخي المكتوب في العصر الإسلامي، يدفعنا إلى الاعتقاد بأن هؤلاء الأمازيغ كانوا يهتمون بأنسابهم قبل إسلامهم بكثير.
حول هذا الموضوع انظر مقالنا : **النسب والتاريخ وابن خلدون،** المنشور في **«مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية»،** العدد الحادي عشر، الرباط، 1985، ص 47 - 83؛ انظر كذلك : G. Camps, **Berbères, Aux marges de l'histoire,** Ed. des Hespérides, 1980. pp. 120 sqq..

5) انظر على سبيل المثال : - Ibn Khaldun, **Histoire des Berbères,** trad. Slane, (1925), t. I, pp. 167 sqq.

6) انظر ابن خلدون، **المرجع السابق،** ص 167 وما بعدها؛ **ومفاخر البربر،** لمجهول، مخطوط الخزانة العامة بالرباط رقم د 1020، وابن عبد الحليم. **كتاب الأنساب،** مخطوط الخزانة العامة بالرباط، رقم ك 1275؛ انظر كذلك :

- J. Berque, **Structures sociales du Haut – Atlas,** Paris, 1955, p. 420.

- G. Camps, **op. cit,** pp. 26 sqq.

- Marcel Simon, « **Le Judaïsme berbère dans l'Afrique ancienne** », in Revue d'histoire et de philosophie religieuse, XXVI, 1946, pp. 1-31, 105-145

7) هذه مسألة نلاحظها في شمال إفريقيا، انظر ابن خلدون، المصدر السابق، ج I ص 251؛ انظر كذلك : **- R. Montagne, Les Berbères et le Makhzen dans le Sud du Maroc,** Paris. 1930, p. 70.

- F. de La Chapelle, « **Les Tribus du Haute montagne de l'Atlas Occidental** », in Revue des études islamiques, Année 1928, Cahier III, p. 350-351.

- J. Desanges, **Catalogue...,** p. 10.

يلاحظ كذلك أن من بين أسماء المرابطين والموحدين والمرينيين نجد أن هؤلاء الأخيرين هم وحدهم الذين احتفظوا باسم الجد الأعلى في تسمية أسرتهم. ومعنى ذلك أن الأسماء بدأت تنزلق من العرقي في اتجاه الإيديولوجي. وهذا يشير، في نظرنا، إلى أن العقلية القبلية شرع في تجاوزها منذ ذلك الوقت.[8] وبظهور السعديين الشرفاء وانتشار الحركات الصوفية، قضي بصفة نهائية على لعبة الكونفدراليات التي كانت من قبل الوسيلة الأساسية للتجديد السياسي.[9] إن الأسماء الثلاثة الكبرى : إيزناتن، امصودن وإيزناگن، لم تعد تمثل جغرافيا وسوسيولوجيا إلا واقعا مجزأ، ولم تعد تملك أية سلطة على مجرى الأحداث. غير أن التاريخ يحتفظ لنا عنها بذكرى زاهية لا تموت. ويشعرنا بصفة خاصة بأن تلك الكيانات الثلاثة كانت مؤهلة منذ زمن طويل، إلى الانخراط في التاريخ الوطني والإنساني تحت راية النموذج الإسلامي في الحكم.[10]

القالب النَّسَبِي (الجينيالوجي) نموذج إدماجي

إذا كانت المصادر الإسلامية قد أجمعت على إعطاء تفسير جينيالوجي لأصول مجموع سكان المغرب،[11] فإنه بالإمكان اعتبار هذا المجهود من وحي النموذج الجينيالوجي السامي.

وفي هذا الموضوع كتب عبد الوهاب بن منصور ما يلي : «وقد اضطربت أقوال المؤرخين في نسب هؤلاء الكنعانيين، وسبب اختلافهم اعتماد بعضهم على **جدول الأنساب الوارد في التوراة**، وشك بعضهم الآخر في صحته وسلامته من التحريف.

8) انظر : **M. Morsy**، المرجع السابق، ص 107.

9) انظر : Histoire du Maroc, (Collectif), 1967, pp. 199 sqq – انظر كذلك : محمد القبلي، **مساهمة في تاريخ التمهيد لظهور الدولة السعدية**، المنشور في «**مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية**»، عدد 3 ـ 4، الرباط. 1978 ص 33 وما بعدها، 44.

10) هذا شيء مشهود بوجوده قبل العصر الإسلامي؛ انظر :

- M. Morsy, **op. cit,** pp. 94 sqq.
- Ibn Khaldûn, **op. cit.** (1927), t. II. pp. 160 sqq. et passim.

11) بخصوص إِمْصْمْدْنْ (مصمودة)، انظر : ابن عبد الحليم، المرجع السابق، ص 25 وما بعدها؛ انظر كذلك :

- Ibn Khaldûn, **op. cit,** (1925), t, I, pp. 167 spp.
- G. Camps, **op. cit,** pp. 26 sqq. 120 sqq.
- F. Decret / M. Fantar, **L'Afrique du Nord dans l'Antiquité des Origines au Ve siècle,** Paris, 1981, pp. 33 sq.

وهذا الجدول الوارد في الإصحاح العاشر من سفر التكوين هو الذي قسم الأسرة البشرية إلى آل سام وآل حام وآل يافث (...). **وممن اعتمد جدول التوراة في الأنساب العلامة ابن خلدون** الذي يعتقد أن التحريف الذي وقع فيها إنما هو بالتأويل لا بتبديل الألفاظ...» (قبائل المغرب I، 1968، ص 256).

إن تعميم هذا النموذج، واعتباره العامل الوحيد المحدد للحركية (الدينامية) المجتمعية، وبصفة خاصة عند المصامدة الذين نعرفهم مزارعين مستقرين منذ أمد بعيد،[12] ليعتبر ـ في نظرنا ـ عملية إدماجية عميقة لم يسبق لتاريخ شمال إفريقيا أن عرف لها مثيلا[13] خصوصا إذا علمنا أن التأويل التاريخي يصبح، حين يتم، جزءا لا يتجزأ من التاريخ. ذلك لأن الواقع التاريخي كما نعرفه من خلال المصادر والمراجع لا ينطبق تماما على الواقع كما عاشه الإنسان فعلا في الماضي ومع ذلك فإن تحكم الأدب التاريخي في السيرورة التاريخية للمجتمعات البشرية لا يمكن الاستهانة به بأية حال. فالماضي حينما يكون «معروفا» بأي شكل من الأشكال، فإنه يصبح جزءا لا يتجزأ من الحاضر، ويؤثر كثيرا أو قليلا على أنماط التفكير وردود الفعل العملية للأفراد والجماعات. «أن هذه القيم [الثقافية] نكتشفها أولا كشيء ينتمي إلى فئة الآخر، حينما نلقاها كقيم «كانت موجودة» عند أناس الماضي، داخل حضارات ومجتمعات منقرضة، ولكن في حالة ما إذا بيننا أننا قادرون على الإمساك بها وفهمها، فإنها

12) انظر على سبيل المثال :

- G. Camps, **op. cit,** p. 21.
- R. Montagne, **op. cit,** p. 36.
- J. Berque, **op. cit,** p. 420.
- Ch. A. Julien, **Histoire de l'Afrique du Nord,** Paris, 1975, T.II, p. 24.

13) اننا لا نطعن في دور القرابة كعامل يدخل في تكوين التلاحم المجتمعي لدى الشعوب القديمة. ولكننا نعتقد أن ظهور تكوينات واسعة كالكونفدراليات واللف، عند المصامدة على الأقل، دليل على أن القرابة الدموية لم يعد لها دور فعال إلا على مستوى التكوينات المجتمعية الصغيرة (الأسرة أو العائلة الموسعة مثلا).

انظر :
- R. Montagne, **op. cit,** pp. 164 sqq. 182 sqq.
- M. Morsy, op. cit, p. 96.
- cf. notre article : « **Sur la théorie de la segmentarité appliquée au Maroc** », in Hespéris – Tamuda, vol. XXIII, Fax. unique, Rabat, 1985, pp. 105-128.
- Ibn Khaldûn, **op. cit,** (1925), t.I, p. 179.
- J. Berque, **op. cit,** p. 420.
- Ch. – A. Julien, **op. cit,** t.II. p. 22.
- Marcel Simon, **op. cit,** pp. 8 sqq.

تستعيد الحياة فينا وتكتسب، إن شئنا القول، حقيقة جديدة، وتاريخية (Historicité) ثانية داخل فكر المؤرخ والثقافة المعاصرة التي يدمجها فيها هذا الأخير».

(H. I. Marrou, **De la connaissance historique,** coll. Poits, 1975, p. 242) إن عواقب تكييف تاريخ مع تاريخ آخر، عواقب وخيمة وبعيدة المرمى. وبالفعل فإن معنى هذا التاريخ يصبح بذلك عرضة للتعديل. فاستعمال الطريقة الجينيالوجية يطرح بالضرورة إشكالية الأصول البعيدة للسكان. وهذا يعني بالطبع أن هذه الأصول تصبح موضوعاً للمناقشة في فترة تعتبر مرحلة انتقالية مضطربة جدا. ويصبح الموضوع، نتيجة لذلك، فرصة مثلى للمزايدات بخصوص ماض يعاد تعريفه انطلاقا من ملابسات ظروف الحاضر. وبعبارة أخرى فإن كل أنواع المصالح تتدخل لتخلق حالات فردية وجماعية تتكيف مع الظروف الجديدة. فتتضافر الإرادة الإدماجية لدى المنتصرين وهم أقوياء إيديولوجيا، مع الطموحات الفردية عند المنهزمين وهم أعزال معنويا، لتحدث «خسائر» هائلة سيبقى مفعولها على الدوام.

إرادة الادماج من جهة، والرغبة في الاندماج من جهة أخرى، تلتقيان إذن لإرضاء تلك الإرادة وتلبية هذه الرغبة وذلك بخلق أسس جديدة لتاريخ وقع تصوره بهدف حسم ما يشهد فيه بالاختلاف، أي ما يمكن أن يعرقل مشروع المستقبل.

ويبدو أن هذه الغاية هي التي حددت أفق النقاش الكبير الذي دار حول مسألة الأصول الشرقية للأمازيغيين، ومسألة افتراض نبلهم أو وضاعتهم حسب الظروف، وحول إعادة تكييف رموزهم المجتمعية ـ الثقافية بصفة عامة.(14)

التأويل الجينيالوجي نِسبي

إن التأويل الجينيالوجي لتاريخ المغرب، بل لتاريخ شمال إفريقيا، الذي اعتبر إلى حد الآن التفسير الممكن الوحيد، يمكن ـ على ما يبدو ـ أن ينال منه النقد. «...وبالفعل ـ يقول Jehan Desanges ـ فإننا لا نعرف عمليا أي شيء عن روابط الأصل

14) انظر ماكالي موريي، المرجع السابق، ص 107، كل المصادر الإسلامية تقريبا تعكس صدى ما راج حول هذه المسألة من نقاش؛ انظر :

- F. Decret / M. Fantar, **op. cit,** pp. 33 sqq.
- Ibn Khaldûn, **op. cit,** (1925), t.I, pp. 167 sqq.
- Anonyme, **Mafâkhir al-Barbar,** ms. B.G. Rabat, nº D 1020, p. 58.
- J. Berque, **op. cit,** p. 420.
- Marcel Simon, **op. cit,** pp. 8 sqq.

أو المصلحة التي كانت تجمع بعض القبائل بشكل متين. إذ ليس هناك أي كاتب من القدامى سبق له أن اقترح علينا جينيالوجيا تشبه التي شيدها ابن خلدون في كتابه **تاريخ البربر**».(15)

فبخصوص مصعودة مثلا، يبدو أنهم كانوا يكونون منذ أقدم العصور مجموعات مجتمعية ـ سياسية واسعة، وليس هناك أي دليل يثبت أن أساس وحدتها كان مستمدا من الروابط الدموية وحدها.(16) وعلى العكس من ذلك نعتقد أن زناتة وفرقا من صنهاجة، كان نظامها يرتكز على روابط القرابة بين مختلف المجموعات.

أسباب هذا الاعتقاد يمكن تلخيصها كما يلي :

1) لقد لاحظنا من خلال دراسة أخرى سبق نشرها أن جل النسابين الأمازيغ المشهورين، كانوا ينتمون إلى الشعب الذي اصطلح على تسميته **بالبتر**(17) كما لاحظنا أن التفاصيل الجينيالوجية التي توفرها مختلف المصادر المعروفة بخصوص البتر أكثر من التي تعطيها على كل المجموعات الأخرى.(18)

2) إن تفسير هذا الواقع يمكن أن نجده فيما يلي : لقد ذكر ابن خلدون(19) أن أجداد إيزناتن أو زناتة وإخوآنهم، وكلهم من البتر، كانوا يعيشون حياة الترحال في القسم الشرقي من إفريقيا الشمالية، غرب البلاد المصرية. وزناتة أنفسهم يقدمهم لنا التاريخ تارة رعاة إبل يمارسون الترحال البعيد(20) أو رعاة غنم، مجالات ترحالهم محدودة، تارة أخرى.(21) لذلك يمكن القول بأن نمطهم في العيش ووضعية بلادهم

15) انظر :

- J. Desanges, **Catalogue...,** p. 10
- F. Decret / M. Fantar, **op. cit,** pp. 33 sqq.
- G. Camps, **Berbères...,** pp. 120 sqq.

16) نعتقد أن هذا كان عاما عند مزارعي كل المناطق الجبلية في إفريقيا الشمالية. انظر :

- R. Montagne, **op. cit,** pp. 26 sqq.
- J. Berque, **op. cit,** pp. 63 sqq. 420 sqq.
- SADKi Ali, **Sur la thèorie segmentaire...,** pp. 112 sqq.

17) انظر مقالنا : **النسب والتاريخ وابن خلدون** المشار إليه سابقا ص 67 وما بعدها. (هامش 4).

18) المرجع نفسه، ص 67 وما بعدها.

19) **تاريخ البربر** (بالفرنسية)، 1925 ج I، ص 170، 172، 226، 228، 232.

20) انظر :

- Ch. A. Julien, **op. cit,** II, p. 23.

وحول لواتة إخوان إيزناتن انظر :

- G. Camps, **op. cit,** pp. 124 sqq.

21) انظر :

- Ch – A. Julien, **op. cit,** t.II, p. 164.

الجغرافية ساهما في جعل روابط القرابة هي التي تتحكم إلى حد ما في تنظيماتهم الاجتماعية والسياسية.

ومع ذلك ينبغي أن نشير إلى أن «كل مجموعة [سواء كانت من الرحل أو من المستقرين] قد يكون تكوينها لا من الأقرباء ولكن من أناس لهم نمط عيش واحد».[22] لكن هذا لا يغير في شيء المفهوم الشامل الذي تكونه كل مجموعة عن نفسها. وبصفة عامة يغلب التصور الجينيالوجي عند القبائل الراحلة.[23]

أما عن دور الوضعية الجغرافية للبلاد الأصلية لزناتة فإنه يكتسي أهمية خاصة، لأن قرب البلاد من مراكز الإسلام في الشرق، وخاصة مصر، جعلهم - قبل غيرهم - على اتصال بالمسلمين الأوائل، وبالتالي أكثر عرضة للتأثر بالنظرة الشرقية إلى التاريخ. خصوصا إذا علمنا أن مسألة الأنساب أعطيتها أهمية كبيرة في أوائل العهد الإسلامي، وقد يكون انتشار بني هلال في شمال إفريقيا عاملا ساعد أكثر على تركيز فكرة الجد الا على الوهمية، لذلك شهد هذا العصر عملية إدماجية واسعة[24] داخل النسق النسبي المعروف في الشرق.

3) نظرا لكون شمال إفريقيا كانت - منذ القرن الخامس قبل الميلاد على الأقل[25] قد أقحمت فيما سماه Lévi Strauss «حقل الأعمال المتداخلة القوية»[26] (Le champ des interactions fortes)، فإن قسمها الشرقي كان قد عرف تقلبات عميقة.[27] فقد كان بالفعل أول منطقة عرفت نتائج الغزو القرطاجي والروماني ثم الوندالي فالبيزانطي. كما عرفت أخيرا نتائج الفتوحات الإسلامية.

هذه الأحداث كانت ولا شك سببا في دفع سكان هذه المناطق إلى الدخول في حركة تنقل دائم في اتجاه الغرب.[28] يمكن أن يكون هؤلاء إذن هم الذين نشروا في المناطق التي مروا بها نمط نظامهم المجتمعي - السياسي.[29]

وقد تكون مجموعات أخرى من الرحل مثل إيكُوزولن أو جزولة وإيزناكَن أو صنهاجة أو قبائل البدو العربية، قد ساعدت هي بدورها في تثبيت «المفهوم الأبوي السائد عند المشارقة، والذي كان الفينيقيون قد أدخلوه من قبل عند البربر».[30]

4) وإذا كنا قد افترضنا في مقال آخر أن الأمازيغيين كانت لهم اهتمامات بالأنساب قبل الإسلام[31] فإننا كذلك نعتقد أن وضع أول مؤلف في أنسابهم لم يتم إلا بعد فتح الأندلس مباشرة[32] وبالفعل فإن عبيد الله بن صالح بن عبد الحليم صاحب «كتاب الأنساب»[33] يذكر أن أول كتاب في أنساب الأمازيغ جمع بإيعاز من بعض العلماء من التابعين.[34] الذين قالوا لهم : «ظلمتم أولادكم الذين ولدتم هاهنا، يكبرون ولا يعرفون أنسابهم».

وجه هذا الكلام حسب «كتاب الأنساب» إلى أناس كانوا في الأندلس ولكن أصلهم من إفريقية، عرفنا ذلك لأنهم أرسلوا بعد ذلك بعض فقهائهم إلى أفريقية، واتصلوا هناك بالطاعنين في السن من مواطنيهم، وكتبوا في كتاب ما جمعوه من

---

22) المرجع نفسه، ص 22.

23) انظر مقالنا النسب... ص 74 وما بعدها، وكذلك :

- G. Tillion, **Le Harem et les cousins,** Paris, 1966, pp. 135 sqq. 147 sqq.
- J. Berque, **« Qu'est-ce qu'une « tribu » nord-africaine »?** in **Maghreb histoire et société,** S.N.E.D. et Duclot, 1974, pp. 23 sqq.
- J. Berque, **Structures...**, p. 420.

24) انظر :

- J. Berque, **Structures...**, p. 420.
- G. Camps, **Berbèrés...**, p. 121.

25) انظر :

- Ch – A. Julien, **op. cit,** t.I, pp. 66 sq, 138, 160, 198 et passim.
- G. Camps, **Berbères...**, 122 sqq.
- A. Laroui, **L'histoire du Maghreb,** Paris, 1970, p. 44 et passim.
- **Encyclopédie berbère,** I, Edisud, 1984, pp. 22 sqq.

26) «وتكمن في الهجرات، والأوبئة، والثورات، والحروب، التي تقع من حين لآخر، على شكل هزات عميقة تتولد عنها نتائج كثيرة ودائمة المفعول». من مقالة :

« Le temps du mythe », in **Annales E.S.C,** 26e année, nos 3 et 4, Mai – Août 1971, p. 539.

27) انظر :

- A. Laroui, **op. cit,** p. 44 sqq.
- G. Camps, **op. cit,** pp. 122 sqq, 169 sq.

28) انظر :

- **Encyclopédie berbère,** I, p. 22

29) انظر :

G. Camps, **op. cit,** p. 122.

30) نفس المرجع، ص 121؛ انظر كذلك :

- Marcel Simon, **op. cit,** pp. 10 sqq.

31) **النسب...** المشار إليه أعلاه، ص 59 وما بعدها.

32) المرجع نفسه، ص 59.

33) مخطوط الخزانة العامة المشار إليه سابقا، ص 20؛ انظر محمد المنوني، **المصادر العربية لتاريخ المغرب،** ج 1 الدار البيضاء 1983، ص 18.

34) «علماء التابعين» المصدر السابق، ص 20.

معلومات حول أنسابهم[35] وبما أننا أشرنا أعلاه إلى أن القسم الشرقي من إفريقيا الشمالية كان مواطن المجموع الزناتي مع إخوانهم، يمكن أن نفترض أن هؤلاء - نظرا لكونهم سبقوا غيرهم إلى الدخول إلى الإسلام - كانوا يكونون أغلبية جنود طارق بن زياد، وبالتالي أغلبية المقيمين الأمازيغ بالأندلس.[36]

5) لكي نلخص ما سبق، نقول : إن سكان إفريقيا الشمالية الشرقية، وهم رحل في غالبيتهم، كانوا ينتظمون بنظام مجتمعي - سياسي أبوي (Patriarcale). ولكن هذا لا يعني أن النظام المذكور كان يرتكز على علاقات قرابة «صافية» أو جامدة كما هو الشأن عند البدو المنقطعين في ربوع الصحراء.[37] ذلك لأن سكان إفريقية الشمالية الشرقية كانوا دوما في قلب الأحداث الكبيرة التي تهز منطقتهم في أغلب الأحيان.[38]

وبقدوم العرب المسلمين، في عصر كانت فيه الأنساب تحتل الصدارة[39] عمل الأمازيغ على اقتناء النموذج الجينيالوجي أو النسبي السامي كمؤسسة فريدة لتوحيد مختلف المجموعات. أو كنموذج لتفسير واقع مجتمعي معقد، فرضت عليه الظروف المستجدة توجيها تأويليا يتلاءم مع الذي حمله العرب معهم.[40]

---

35) المصدر السابق، ص 20؛ لم ننتبه إلى هذه الملاحظة في مقالنا عن النسب...، لاننا ظننا خطأ أن كلمة إفريقية تعني عند مؤلف **كتاب الأنساب** مجموع شمال إفريقيا، مع أننا نعرف أن **إفريقية** كانت في ذلك العصر تعني تونس الحالية تقريبا.
أما مسألة الأصول الشرقية للأمازيغ، فإنها كانت مطروحة، لأسباب دينية، قبل مجيء الإسلام بكثير. لأن الدعاية اليهودية والمسيحية كانت تشتغلها على الدوام لإدخال الأمازيغ في إحدى الديانتين المذكورتين. انظر عن هذا الموضوع مقال مارسيل سيمون المشار إليه سابقا ص 16 وما بعدها.

36) انظر ابن خلدون، **المصدر السابق** (بالفرنسية) 1925، ج I، ص 198، 210، 212، 216، 237، 259، وأماكن أخرى منه؛ صدقي علي : **النسب..** ص 70؛ في هذه الحالة، لم يكن سكان المغرب الأقصى، على رأي الأستاذ محمد المنوني (المصادر.. ص 18) أول من كتب في مادة الأنساب في شمال إفريقيا. إذا قبلنا ما ذهب إليه محمد المنوني (في **النسب..** ص 59)، فاننا أكدنا في نفس الوقت على الطابع الخفي للأسباب التي دفعتهم إلى القيام بذلك.
انظر كذلك : ابن عبد الحكم، **فتوح مصر والمغرب** تحقيق عبد المنعم عامر 1961، ص 270، 271، 273؛ ابن عذاري، **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**، ج I ط 3، 1983، ص 43.

37) انظر صدقي علي، **النسب...**، ص 75 وما بعدها؛ ابن خلدون، **المقدمة**، ط 4 بيروت 1978 ص 129، 130.

38) انظر :

- G. Camps, **op. cit**, pp. 112 sqq, 122 sqq.
- Ch – A. Julien, **op. cit**, t.I, pp. 53-54; t.II, p. 22.

39) انظر صدقي علي، **النسب..** ص 50 وما بعدها.

40) مما يزيد من صحة هذا الرأي أننا نجد داخل نفس المجموعات البشرية فرقا تدعي الانتماء إلى أصول مختلفة (أمازيغ أو عرب). إذا كان ثلاثة من كبار النسابين المشهورين، المنتمين إلى القسم المسمى **بالبتر**، يزعمون أن البتر أبناء بر

في الوقت الذي كان فيه الزناتيون يتجهون نحو الغرب عند بداية الفتوحات الإسلامية،[41] كانوا يتوفرون على كثير من المزايا : كالعصبية المتلاحمة، والمهارة الحربية، والوعي السياسي المتنامي[42] والشجاعة الظاهرة في مواجهة الممثلين المحليين للسلطة الأموية... هذه المزايا قد تكون هي التي ساعدتهم - أثناء توسعهم في اتجاه الغرب - على نشر النموذج الجينيالوجي أو النسبي.

إن النمو الكبير الذي عرفه علم الأنساب في القرن الرابع عشر، في عهد الدولة المرينية التي أسسها الزناتيون الآتون من إفريقيا الشمالية الشرقية، ليس من باب الصدف العادية.

هذا العهد هو بالفعل عهد ابن خلدون، مؤلف أكبر عمل جامع في ماضي إفريقيا الشمالية، والذي ركز كل تفكيره - كما هو معلوم - على التفسير النسبي ودور العصبية في الدينامية التاريخية.[43]

ولكن دور ابن خلدون قد يكون منحصرا في الدفع إلى أقصى الحدود، بتقليد كان موجودا منذ القدم. وحول هذه النقطة أكد Marcel Simon، أن التقاليد اليهودية هي التي نمت ونشرت فكرة الأصل المشرقي للأمازيغيين، وتبعا لذلك، التفسير الجينيالوجي لتاريخهم. وهذا ما قاله : «أن يكون المؤلفون العرب والمسيحيون مدينين للتقليد اليهودي [بخصوص هذه المسألة]، هذا أمر ليس فيه أدنى شك، فالتشابه الحاصل حتى في البدائل، عند هؤلاء وأولئك له دلالته. وأن تكون الأسطورة من أصل يهودي، فهذا أمر لا يحتاج إثباته إلى مزيد من الحجج. إننا نعتقد أنها تكونت في عين المكان [أي في إفريقيا الشمالية]، كما أن ملابسات تكوينها وموضوعها واضحان كذلك، لقد ولدت في عصر كانت فيه اليهودية تنتشر في إفريقيا، فمن الواجب عليها إذن أن تعطي البربر الذين اعتنقوا اليهودية أو المرشحين لاعتناقها شرف الانتماء إلى نبلاء التوراة، وتساند دعاية اليهود المبشرين» (المرجع السابق، ص 18).

= **بن قيس** (انظر ابن خلدون **تاريخ البربر** (بالفرنسية) 1925، ج I، ص 169، 178)، فإن ذلك يعني بكل بساطة أنهم اختاروا أصلا يقربهم من العرب.
انظر كذلك صدقي علي، **النسب...**، ص 70 - 71 تعليق 99، ومارسيل سيمون، المرجع السابق ص 18 وما بعدها.

41) عن مكناسة مثلا، الذين التجأوا إلى المغرب الأقصى «للإفلات من انتقام عقبة بن نافع» انظر ابن خلدون **تاريخ البربر** (بالفرنسية) 1925، ج I، ص 198.

42) إذا كانوا أول من واجه الجيوش العربية، وأول من صد أمامهم مدة طويلة، وأول من اعتنق الدين الإسلامي ليصبحوا بعد ذلك جنود الإيمان في إفريقيا الشمالية وإسبانيا... فإن ذلك كله هو الذي مكنهم من اكتساب هذا الوعي وذلك التسييس؛ انظر صدقي علي، **النسب...**، ص 71 والتي بعدها.

43) انظر صدقي علي، **النسب...**، ص 47 والتي بعدها، 78 وما بعدها.

إن هـذه المشـاغـل نفسهـا، نعتقـد أنهـا كـانت، في العصر الإسـلامي، وراء نمـو المزايدات حول الأصل المشرقي للأمازيغ، وخاصة منهم الزناتيين وقسما من صنهاجة.

التأثير الحاسم للجغرافيا واقع حقيقي

في شمال إفريقيا كثيرا ما ينسى التـأثير الحـاسم للجغرافيـا على نشـاط الإنسـان، وتـأثير أنمـاط العيش على ثقـافتـه،(44) فـالنسب البيولـوجي ـ الـذي لا ينبغي إهمـالـه بطبيعة الحال ـ ليس هو العـامل الوحيـد الـذي يتحكم في تحـديـد مجموع المسميـات المجتمعيــة داخـل مجمـوعــة معينــة. لأن التفسير النسبي (الجينيـالـوجي) لتــاريـخ المجموعـات البشريـة والشعوب هو أسـاسـا تفسير مؤسسي اصطلاحي، يتجـاهل تمـامـا المحيط المـادي وأثره الكبير في تكييف المجتمعات.

من البديهي أن لكل درجة من درجات نمو مجتمع ما، نظامـا للمقـاييس وسلمـا للقيم، ومن هنا يأتي اعتقادنا بـأن الاستقرار والترحـال، لا يمكن أن تكون لهمـا نفس العلاقات مع الوسط الإيكولوجي أو البيئي والمجال الجغرافي. وبـالتـالي فـإن تـداخل وتفاعل الوقائع الجغرافية والمجتمعية لا يمكن أن يكون واحدا في الحالتين معا.

فإذا كانت أنماط العيش المختلفة تستوجب بالضرورة أشكـالا تنظيميـة ملائمـة، فإن نظام القيم قلما يكون متشابها في الوضعيتين معا.

تقدم لنا المصادر الإسلامية المصامدة، سكان الأطلس ومجموع القسم الغربي من المغرب الحالي،(45) كفلاحين مستقرين منذ قرون طويلة.(46) وحول هذه النقطـة كـان رأي هيرودوت واضحا، فبـالنسبـة إليـه توجـد : «ليبيـا الشرقيـة (حيث) يسكن الرحل،

44) هنا التأثير الحاسم له هنا، بصفة خاصة، أهميـة قصوى ودور فـاصل، نظرا لوجود منطقـة صحراويـة في الجنوب وأخرى خصبة في الشمال. الأولى يجوبها الرحل في حين يحتل الثانية مزارعون مقيمون؛ انظر :

– G. Camps, **op. cit.** p. 20.

– Ch – A. Julien, **op. cit**, t.II, p. 24.

45) انظر :

– al – Bakrî, **Description de l'Afrique septentrionale,** trad. de Slane, Paris, 1965, pp. 117, 129, 205, 207, 209, 210, 212 ـ218, 224, 227, 265, 270, 303.

– al – Idrîsî, **Descrption de l'Afrique septentrionale et saharienne,** pub. par H. Peres, Alger 1957, pp. 35, 39, 41, 43, 45, 49, 54, 55, 106.

– Ibn Khaldūn, **Histoire...**, trad. (1927). t.II pp. 124 sqq; t.I (1925), p. 194.

46) انظر :

– Ibn Khaldūn, **Histoire...**, trad, (1927), t.II, pp. 124 sqq. 158 sqq.

– G. Camps, **Berbères...**, p. 25.

عبيد الله صالح بن عبد الحليم **كتاب الأنساب** السابق الذكر، ص 28.

(وهي) منخفضة رملية إلى نهر تريتون (Triton)، والتي تقع غرب هذا النهر، ويسكنهـا المزارعون، (وهي) جبلية جـدا وكثيرة الأشجـار...»(47) في حين، يبـدو أن الإسم الـذي عرفنا به هؤلاء المزارعين في العصر الإسلامي اسم قـديم جـدا، وبـالفعل فـإن المصـادر الإغريقية ـ اللاتينية تتحـدث، من بين مـا تتحـدث عنـه من شعوب مـا يُكَوِّنُ المغرب الحالي القديمة، عن شعب مـاكـانيت (Macanites)(48) أو مـاسنيت (Macénites)،(49) بل يحدد لنا بالضبطِ موقع بلادهم : «هذا الجبلِ [الأطلس] يوجـد في بلاد مـاكـانيت على طول المحيط في اتجـاه الشرق...»،(50) في النصف الثـاني من القرن الثـاني الميلادي، كون هؤلاء الـ ماسنيت مع الـ بـاقوات (Baquates) فـدراليـة كبيرة كـانت تهـدد وليلي (Volubilis).(51) هـؤلاء الـ مـــاسنيت (Macénites) الـــذين افترض ريمـون روجي (R. Roget) أنهم مكناسة،(52) يمكن أن يكونوا ـ في اعتقادنا ـ هم المصامـدة،(53) الـذين

47) من اقتباس :

– G. Camps, **op. cit,** p. 21.

48) انظر :

– J. Desanges, **op. cit,** pp. 33 sq.

– R. Roget, **Le Maroc chez les auteurs anciens,** Paris 1924, pp. 37-41.

49) انظر :

– F. Decret / M. Fantar, **op. cit,** p. 183.

– R. Roget, **op. cit,** p. 41.

(50

«نحو الغرب غير بعيد عن المحيط» حسب رأي :

J. Desanges, **Catalogue...**, p. 33.

51) انظر :

– F. Decret / M. Fantar, **op. cit,** p. 183.

52) نفس المرجع، ص 48؛ انظر كذلك : J. Desanges, **op. cit,** p. 30. بمـا أن مكنـاسـة فرع من إيزنـاتن (زنـاتـة) الـذين كانوا يحتلون المناطق الشرقية من المغرب الأقصى، فأننا نعتقد أن مجيئهم إليه وقع قبل القرن الثاني الميلادي؛ انظر :

– Ibn Khaldūn, **Histoire...**, trad. (1925), t.I, pp. 172, 198, 258 sqq.

– **L'Encyclopédie de l'Islam** (1975), t.I, p. 1209 b sq.

– R. Montagne, **Les Berbères...**, p. 28.

53) إننا نعرف أن المؤلفين القدامى يجدون صعوبات كبيرة في نطق وكتـابة الأسماء ذات الأصل الإفريقي ـ الشمـالي : «إن أسماء هـذه الشعوب [شعوب إفريقيـا] وأسماء مـدنهـا جـد صعبـة النطـق مـا عـدا في لغتهم...». – Pline l'Ancien, in R. Roget, **op. cit,** p. 29.

انظر كذلك : – G. Camps, **Berbères...**, p. 124.

ومع ذلـك نعتقـد أن اسم مـاسنت (Macénites) يعتبر من أقرب الأسماء إلى النطق المحلي. وبـالفعل فـإن الحروف «م» و«د» يمكن، أن تنطق على التوالي «ن» و«ت»، يقع هنا ليس فقط عنـد الأجـانب، ولكن عنـد الأمـازيغ كـذلـك، نظرا لكون الحرفين كثيرا ما يقع الادماج بينهما. انظر :

(G. Marcy, « **Essai d'une thèorie générale de la morphologie berbère** », in « **Hespéris** », 1931, t. XII, Fax. I pp. 50-90, Fax. II, pp. 177-203).

أقرتهم المصادر الإسلامية في نفس المواضع، مع التأكيد على كونهم سكنوها في عصور ما قبل الإسلام.(54)

إذا قبلنا أن الـ باقواتا (Les Bacuatae) الـذين تقع بلادهم حسب بطليموس (Ptolémée) في شمال بلاد الـ ماكانيت(55) هم أجداد برغواطة المشهورين،(56) يمكن الاعتقاد أن كونفدرالية الـ ماسانيت (أي مصاميد الكتاب المسلمين) كانت تضم، منذ القرن الثاني الميلادي، كل سكان الأطلس الكبير والسهول الواقعة جنوب نهر بوركَراكَ الحالي.(57) ورغم أن معلومات أخرى دفعت ج. ديزانج (J. Desanges) «إلى جعل موقع بلاد الـ ماسنيت غير بعيد عن المجرى الأعلى لنهر بوركَراكَ، شرق محور أزرو ـ خنيفرة بدون شك، والـ باقوات شمال الأطلس المتوسط حسب رأي M. Frézouls»(58) أقول رغم كل ذلك فإنه لا شيء يمنع من الاعتقاد بأن الـ ماسنيت كانوا يتوسعون في اتجاه الجنوب، والـ باقوات نحو الجنوب الغربي ليحتلوا في آخر المطاف كل السهول الأطلسية الواقعة شمال نهر أم الربيع.(59)

عرفت إفريقيا الشمالية إذن نمطين كبيرين من أنماط العيش، كانا يتلاءمان تماما مع الظروف الجغرافية والمناخية للبلاد، هذان النمطان رغم كل الملابسات التاريخية المعروفة، كانا ـ في نظرنا ـ لا يتنافيان على العكس مما يقال دائما بالحاح. لقد كانا متكاملين على النقيض مما هو شائع. وبما أن الرحل كانوا دائما يميلون إلى أن يصبحوا مستقرين، فإن واحدا من هذين النمطين حل ببطء محل الآخر.

فالرحل بهذا المعنى كانوا دائما في شمال إفريقيا بمثابة مصدر بشري احتياطي يضمن الاحتلال المستمر للأراضي الخصبة، كلما أدت الكوارث الطبيعية إلى إحداث نقص في عدد السكان المزارعين. ذلك لأننا نعرف أن الاكتساحات الكبيرة من قبل السكان الرحل لبلاد المستقرين لم تكن تتم إلا في فترات الأزمة، وقلما كانت مخربة، اللهم إلا في حالة عرب بني هلال، التي تعتبر حالة خاصة.(60) إن التداخل المستمر لهذين النمطين في العيش، يعتبر ـ في نظرنا ـ هو المسئول عن جعل الواقع التاريخي لسكان شمال إفريقيا واقعا معقدا إلى حد التشبيط.

من جهة أخرى نعتقد أن البحث ينبغي أن ينهج مسالك أخرى جديدة لتطويق هذا الواقع التاريخي بكل تعقيداته. ويبدو أن اللغة، من بين وسائل أخرى، تعتبر واحدة من أحسن الوثائق التي يمكن أن تساعد على تمهيد الميدان للبحث. لأن اللغة، أكثر من أي شيء آخر، غالبا ما تعكس ردود الفعل العميقة والدائمة للمجموعات البشرية، تجاه الطبيعة، ونتائج تأثير هذه على سلوكاتهم وعقلياتهم.(61)

---

54) انظر أعلاه، تعليق 45.

55) انظر :

- R. Roget, **op. cit,** p. 37.

- J. Desanges, **op. cit,** pp. 28-29, 33-34.

56) رغم اختلاف آراء الباحثين حول هذا الموضوع، فإن فرضية J. Carcopino الذي يعتبر أن الباقوات les Baquates وبرغواطة شيء واحد، تبدو لنا أقرب إلى الصحة؛ انظر : J. Desanges, **op. cit, pp.** 28 sqq

57) انظر :

- J. Desanges, **op. cit,** pp. 29-30, 33.

- Ibn Khaldūn, **Histoire...,** trad. (1927), t, II, p. 125.

يعتبر هذا الأخير برغواطة «أقدم أمة من الجنس المصمودي».

58) نفس المصدر، ص 30.

59) انظر :

M. Talbi, **« Hérésie, acculturation et nationalisme des Berbères Bargauvata »**, in Actes du premier congrès d'études des cultures méditerranéennes d'influence Arabo – Bérbère, S.N.E.D, Alger 1973, pp. 217-233.

إن توسع الباقوات المفترض يمكن أن يكون على أقل تقدير، عن طريق التحالفات بينهم وبين جيرانهم من جهة الجنوب الغربي.

60) مثال المرابطين والمرينيين يعتبر في هذا الصدد ذا دلالة كبيرة.

وقد وصف ابن أبي زرع ظروف دخول المرينيين إلى المغرب فقال : «...وقصدت مرين نحو المغرب، فنزلوا بالجبل المطل على وادي ملوية، وهو الجبل الفاصل بين بلاد المغرب وبلاد الصحراء، فأقاموا به إلى سنة عشر وستمائة، فدخلت طائفة منهم المغرب ليمتاروا على عادتهم، فوجدوا المغرب خاليا قد باد أهله ورجاله، وفني خيله وحماته وأبطاله، وقتلت قبائله وأقياله، قد استشهد الجميع في غزاة العقاب، فأقفرت بلادهم فعمرها البوم والسباع والذئاب، فأقاموا بمكانهم، وبعثوا البريد إلى إخوانهم يخبرونهم بحال البلاد وخلائها، وخصبها ونقاية هوائها، وسعة مسارحها ومراعيها وعذوبة مياهها، وكثرة أنهارها، والتفاف أشجارها، وبركات ثمارها، ويأمرونهم بالمسير إليها، والقدوم عليها، فليس ثم من يصدكم عنها ولا من ينازعكم فيها (...) فشدوا رحالهم وأقبلوا إلى المغرب مسرعين (...) حتى وصلوا إلى وادي تلاغ، فولجوا المغرب من ذلك الباب بالخيل والإبل والمراكب والقباب في جيوش كالسيل...» **الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية**، الرباط 1972، ص 26.

61) «إن دراسة اللغة، وتدوينها باعتبارها مخزنا (أو كنزا، إذا شئنا استعمال لفظ أكثر نبلا)، للمعارف التي يملكها البشر، سيكون نقطة انطلاق علوم الحقيقة الإنسانية».

هذا كلام : - Henri Le febvre, **Le langage et la société,** coll. Idées (99), Ed. Gallimard, 1966 (1970), p. 15.

انظر كذلك :

- Lucien Febvre, **«Histoire et dialectologie »**, in Revue de synthèse historique, Juin 1906, t. XII – 3 (nº 36), pp. 249-261.

- **Encyclopédie berbère,** I, pp. 7 sqq.

- J. Berque, **« Cent vingt – cinq ans de sociologie maghrébine »**, dans Annales E.S.C., Juillet – Septembre 1956, p. 301.

إننا على وعي من أن استعمال اللغة في هذا المجال يطرح مشاكل شائكة، خصوصا إذا كان الأمر يتعلق بلغة لم تدرس بعد، كاللغة الأمازيغية. ومع ذلك فأننا نعتقد أن مثل هذه الصعوبات ينبغي ألا تحول دون إصدار فرضيات كفيلة بأن توحي بأفكار جديدة، وقد تتكفل كذلك بإثارة مشاكل من نوع جديد. وبالفعل : «فإن تاريخا يطرح على الماضي ـ من الآن فصاعدا ـ أسئلة تكون دوما أكثر تجددا، وأكثر تنوعا وأكثر طموحا أو أكثر ذكاء، يستلزم بحثا موسعا يطرق جميع الاتجاهات، خلال كل أنواع الآثار التي يمكن أن يتركها لنا هذا الماضي المتعدد الأشكال والذي لا ينضب».(62)

محاولة التأويل اللغوي

«إنه بالاستماع إلى الإفريقي ـ الشمالي وهو يتحدث عن نفسه، قد يُتَمَكَّن أكثر، ليس فقط من إعادة بناء ذاتيته، بل وسطه الموضوعي، وكدليل على ذلك نذكر المساهمة الأساسية التي ساهمت بها اللسانيات في الإثنولوجيا الإفريقية ـ الشمالية، البارزة في الأعمال التي ظهرت ابتداء من وليام مارسي W. Marçais وإيميل لاووست E. Laoust إلى بوريس Boris»(63) ومما يزيد هذا الكلام صحة هو أن التاريخ العميق لشمال إفريقيا، قلما نجد له صدى في مصادرنا المكتوبة.(64) فلو استمعنا إلى كلام هذا العدد الكبير من «القبائل» التي تنتشر في شمال إفريقيا، لأمكننا توضيح مشكلة الأصول، حتى البعيدة، لكثير منها.(65)

---

62) انظر :

- Henri – Irénée Marrou, **De la connaissance historique**, coll. Points, Paris 1975, p. 76.

انظر كذلك : - J. Berque, **Structures...**, pp. 417 sq.

63) انظر :

- J. Berque, **Cent vingt-cinq ans...**, p. 301

عن أهمية الاثنولوجيا بالنسبة للبحث التاريخي انظر على سبيل المثال الحوار الذي أجراه مولود معمري مع :

- Pierre Bourdieu : « **Du bon usage de l'ethnologie** », in « **Awal** », **cahiers d'Etudes Berbères**, 1985 – nº 1, Maison des sciences de l'Homme, Paris, pp. 7-29.

64) انظر مقالنا : «**مساهمة في التعريف برحلة الوافد...**» الذي نشر في العدد الثالث عشر من **مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية** بالرباط.

65) انظر على سبيل المثال :

- Lucien Febvre, **op. cit**, pp. 249-261.

- A. Renisio, **Etude sur les dialectes berbères des Beni Iznassen, du Rif et des Senhaja de Sraïr**, Paris, 1932, Préface, pp. IX-XII.

كثيرا ما يقال لنا إن الأمازيغ يتكلمون بلهجات كثيرة، تنتمي عموما إلى اللهجات الثلاثة الكبرى : تاشلحيت، تامازيغت وتاريفيت، مع الاعتراف بانتماء هذه الثلاثة إلى أصل موحد. فبدل اعتبار هذا التجزؤ عائقا مثبطا، كان بإمكان البحث التاريخي أن يستعمله كمصدر وثائقي كبير الأهمية. إن دراسة اللغة يمكن لها بالفعل أن تعطينا معلومات ليس فقط على الإتجاه العام لتنقلات مختلف المجموعات البشرية على طول وعرض إفريقيا الشمالية. بل ستفيدنا كذلك في معرفة أنماط العيش الأصلية للمجموع البشري الذي تنتمي إليه كل مجموعة من هذه المجموعات.(66)

لقد أشرنا سابقا إلى أهمية تأثير الجغرافيا على أنماط العيش في إفريقيا الشمالية. سنحاول الآن إصدار فرضية تعتمد أساسا على تأويل لغوي، أو بالأحرى على تأويل جديد للأسماء السلالية (noms patronymiques) لشعوب شمال إفريقيا الأكثر شهرة.(67) ولكن قبل ذلك سنعطي بعض الملاحظات العامة حول المعطيات اللغوية التي اعتمدناها في تحليلنا.

1) تعتبر عملية التركيب اللغوي من أقدم الوسائل التي استعملها الأمازيغ في مجال إغناء رصيده المعجمي.(68) إنها طريقة ترتكز على إدماج كلمتين معروفتين لتركيب كلمة جديدة. قد تكون الكلمتان المدمجتان على شكل : اسم + اسم، مع استعمال أو عدم استعمال «ن» الإضافة بين الاسمين المركبين، أو على شكل : فعل +

---

66) انظر :

- G. Marcy, **op. cit**, pp. 177 sqq.

- L. Febvre, **op. cit**, pp. 258 sqq.

- Cf. Marcel Locquin, « **Le fond commun des langages et des écritures** », in Sciences et vie, Juin 1980, pp. 50-63.

67) إننا لا نزعم أننا أول من اتخذ هذا الاتجاه؛ انظر على سبيل المثال : G. Marcy, **op. cit**, pp. 192 sqq

68) انظر :

- E. Laoust, **Mots et choses berbères,** societé Marocaine d'Edition, Rabat, 1983, pp. 109, 112, 184, 185, 187, 190, 218, 272, 356, 492 sqq.

- E. Laoust, **Etude sur le dialecte berbère des N fifa,** Paris, 1918, pp. 95 sqq.

- A. Renisio, **op. cit,** pp. 46 sq.

- G. Marcy, **op. cit,** pp. 69, n. 2, 70, 89, 193.

- Salem chaker, **Un parler berbère d'Algérie (Kabylie), Syntaxe,** Aix – en – Provence, 1983, pp. 484 sq.

- Salem chaker, « **Synthématique berbère, Composition et dérivation en kabyle** », Extrait des tomes XXIV – XXVIII, années 1979 – 1984, des comptes rendus du G.L.E.C.S. Librairie orientaliste – Paul Geuthner, Paris, pp. 91 sqq. 124 sq.

اسم، أو اسم + فعل.[69] «إن وجود هـذه الطريقـة [التركيب اللغـوي] عنـد جميـع البربر دليل على أنها قديمة».[70]

2) في الكلمـة المركبـة غـالبـا مـا يختفي الحرف المتحرك الأول في الاسم الثاني.[71] غير أنه توجد كذلك حالات يتعرض فيها الحرف المتحرك الأول في الكلمة الأولى لنفس الشيء.[72]

3) إن الألفاظ التي تتكون منها الأسماء المدروسـة هنـا، لا تزال مستعملـة لـدى الأمازيغ في مناطق متعددة، كما أنها لا تزال تحتفظ بوجه عام بمعانيها المعروفة.[73]

إيمصمودن أو مزارعو الغرب

لقد أشرنا سابقا إلى أن أقدم مصادر التاريخ، تقدم لنـا سكـان إفريقيـا الشماليـة الغربيـة بوجـه عـام، على أنهم مزارعون مرتبطون بـالأرض.[74] هـذا الواقع يمكن ـ في نظرنا ـ تأكيده بتحليل اسم إيمصمودن، سكان المغرب القدامى. وبالفعل نعتقد أن لفـظ «مصمود» كلمـة مركبـة تعني «الـذي / الـذين، يملـك / يملكون، أو يزرع / يزرعـون الحبوب».

لنستعرض فرضياتنا :

فرضية «أ»

كلمة **مصمود** (أو مْسَمُودْ، أو مْسْمُودْ)، يمكن أن تكون مركبة من **مْسْ** + (أ) **مُدْ**. **مْسْ** (مْسْ، مَسْ) تعنى : «سيـد (الرجـل الـذي يملـك، يتـوفر على) أي شيء؛ إنســان مكلف بحراسـة القطعـان، أو بفلاحـة حـديقـة، أو بـالقيـام بـأي عمل، هـو **مِسْ** تلـك القطعان أو تلك الحديقة أو ذلك العمل؛ إنسان عادته السفر أو الصيد... هو **مِسْ** السفر أو الصيد...».[75]

---

69) انظر :

- Salem chaker, **Synthématique...**, pp 94 sqq.

70) نفس المرجع، ص 96.

71) نفس المرجع، ص 94.

72) انظر :

- Fernand Bentolila, **Grammaire fonctionnelle d'un parler berbère,** Paris, 1981, p. 406.

73) سنعطي عن هذه الألفاظ التفاصيل المدققة الضرورية كلما ورد ذكرها.

74) انظر أعلاه، تعليق 45 و46.

75) حسب ما ورد عند :

- Charles de Foucauld, **Dictionnaire Touareg – Francais,** Imprimerie Nationale de France, 1951, t. II, p. 1245.

أمُدْ التي تعني : البذور أو الحبوب أو عملية الزرع؛ الفلاحـة أو الحرث أو وقت عملية الحرث.[76]

مْسْمُودْ (= مْسْ + (أ) مُـدْ)، قـد تعني إذن : النـاس الـذين يملكـون ويتـوفرون على البذور، الذين تعودوا على زراعة الحبوب، أي الفلاحين والمزارعين.

فرضية «ب»

إن كلمـة **أمْصْمُـودْ** مشتقـة من **أمْـزّْمُـوْد** (بتفخيم الـزاي)، وهـذه كلمـة مركبـة، تتكون من الفعل زْ (بـالتفخيم)، وتعنى ممّـا تعني : غرس، زرع[77] (الفعل التـام : إيـزّ (بتفخيم الزاي المشددة))، الفعل غير التام : **زّ** (بتفخيم الزاي المشددة))، ومن لاصقة اسم الفاعل **أمْ**، ومن الاسم **أمُدْ** (= البذور)؛ وبذلـك تصبح الكلمـة على الشكل التـالي : **أمْ** + زّ + **أمُدْ**، وبعد سقوط الحرف المتحرك الأول في اسم **أمُـدْ**، تصبح **أمْزّْمُـدْ**؛ وأخيرا يقع الإهماس في **زّْ** ← **صْ** ويفقد كذلك التشديد في سلسلـة **مْصّْمْ** ← **مْصْمْ**، ذلـك لأن طريقة الإجهار وفك الادغام عمليـة عـاديـة عنـدمـا يتعلق الأمر بنقل كلمـة من الأمازيغية إلى العربية أو العكس. وكمثال على ذلك نذكر ما يلي :

- **الصلاة** ← **تَزَلّتْ** (بتفخيم الزاي واللام المشددة).
- **الصّوم** ← **أزُمْ** (بتفخيم الزاي).

ويمكن أن نفترض وقوع عملية معاكسة في الكلمات المستعـارة من الأمـازيغيـة إلى العربية في بدايات الاتصال الأولى بين اللغتين : **أمْزّْمُدْ** ← **أمْصْمُدْ**.

وهكـذا تصبح الكلمـة المحصل عليهـا أخيرا هي : أمْصْمُـدْ ← المزارع والغـارس والحارث.

فرضية «ج»

إن كلمة **أمْصْمُدْ** بديل لكلمـة **أمْزّْمُـدْ** المكونـة (المركبـة) من **أمْزْ** + **أمُـدْ**. **أمْزْ** الفعل التـام **يُمْزْ**، الفعل غير التـام **أمْـزْ**، ويعني : أمسـك، أخـذ،[78] **وأمُـدْ**، تعني :

---

(76) انظر :

- E. Destaing, **vocabulaire Francais – Berbère,** Paris, 1920, p. 258.
- cf. ch. de Foucauld, **op. cit,** t, III, p. 1153.
- E. Laoust, **Mots...,** p. 472.

(77) انظر :

- Ch. de Foucauld, **op. cit,** t. IV, p. 1926.
- E. Destaing, **op. cit,** p. 222.

(78) انظر :

- E. Destaing, **op. cit,** p. 230.

البـذور. وبعـد سقوط الحرف المتحرك الأول من لفظ **أَمْدْ** وإهمـاس ز، نحصل على **أَمْضْمْدْ**، ويعني في هذه الحالة : «الذي يقبض على البذور، والذي يحتفظ بها».[79]

إيزناتن أو مربو الأغنام

أما فيما يخص إيزناتن أو زناتة، فإن التـاريخ يخبرنـا بـأنهم كـانوا في غـالبتيهم رحلا يربون الحيوانات الأليفة، وخاصة منها الصغيرة الأجسام.[80] وعنـد تحليل اسمهم يمكن التوصل إلى نوع من التأكيد للصورة التي يحتفظ لهم بها التاريخ. وبهذا الصدد يمكن إصدار فرضتين اثنتين :

فرضية «أ»

أَزْنَتْ في المفرد، **إِزْنَتْنْ** في الجمع. **أَزْنَتْ**، لفـظ مركب من **أَزْنْ**، ومعنـاه : «بعث وأرسـل»[81] + **أَتْنْ** : أي النعـاج[82] ← **أَزْنْ + أَتْنْ**. **إِزْنَتْنْ** قـد تعني إذن : الـذين يبعثـون بنعـاجهم إلى المراعي، والـذين يمـارسـون أسـاسا تربيـة الماشيـة في الترحال.

فرضية «ب»

إِزْنَتْنْ لفظ مركب من : **إِهْنْ** (= إزن، أزن)، ويعني : الخيـام،[83] **وأَتْنْ** ومعنـاه : أن يكـون الشيء كثيرا أو كبيرا،[84] ومن هنـا يـأتي معنى : «الخيـام الكثيرة أو المراتـع الكبيرة» وهذا يتضن أن **إِزْنَتْنْ** يمارسون التربية الترحالية للماشية.

79) نشير بهذا الصدد إلى أن لاصقة **أَمْسْ**... التي نجدها في ألفاظ مثل : **أَمْسْبْرِدْ** (= المسافر) **وأَمْسْدْرَارْ** (= الإنسان الجبلي)، والتي يعتبر سالم شاكر أنها قد تكون قديمة جدا، ليست في الحقيقة، على ما يبدو، إلا بديلا للفظ **أَمْزْ** (بتفخيم الزاي) التي تحدثنا عنها.
ومما يزيد في صحة هذا الرأي أن «هذا التكوين **أمس + اسم**، **يعطي معنى عاما هو : «الذي / ما هو مرتبط / له علاقة بـ «س»». وحتى ندقق هـذه الملاحظة أكثر نضيف بأن الكلمات : أَمْزْ ـ أَبْرِدْ (= خذ الطريق حرفيا = أخذ الطريق، المشي) وأمز ـ أَدْرَارْ (= أبق في الجبل حرفيا = ساكن الجبل)، لا تزال مستعملة بكثرة. انظر :**
– S. Chaker, **Synthématique...**, p. 124.

80) انظر أعلاه تعليق 19، 20، 21.

81) انظر :
E. Destaing, **op. cit**, pp. 113 – 114, 120.

82) نفس المرجع، ص 45.

83) انظر :
Ch. de Foucauld, **op. cit**, t. II, p. 609.
جمع كلمة **إِهْنْ** (هـ = ز) هو **إِهَنَنْ** = مخيمات أو مجموعة من الخيام. (نفس المرجع، ص 610).

84) انظر :
Ch. de Foucauld, **op. cit**, t. IV, p. 1876-77.

إيزْنَاگْنْ أو جمّالو الصحراء

«إن القسم الذي تحتله صنهاجة من الصحراء كان يمتد على مسافة ستـة أشهر من المشي».[85] وتـاريخ المرابطين يبين أنهم كـانوا رحـلا حقيقيين، متعـودين على العيش في فضاءات جـافـة واسعـة. ويبـدو أن أسمهم مـاخوذ لا من أصل نسبي مـا، ولكن من الصبغة الغالبة على أنشطتهم. وبهذا الصدد يمكن اقتراح نوعين من التأويل الممكن.

فرضية «أ»

أَزْنَـكْ في المفرد، **إِزْنَكْنْ** في الجمع، هـذا اللفظ مركب من **إِهْنْ** (= أزن)،[86] ومعنـاه : «الخيـام المصنـوعـة من الجلـد»، **وإِكْنْ** (= المغـاورون أو الـذين يمـارسـون الغـارات).[87] يقـع التركيب إذن على هـذا النحـو : **إِزْنْ + إِكَنْ ← إِزْنَكْنْ ← إِزْنَكْنْ**. وبما أن التفخيم يعتبر من مميزات اللهجات الصنهاجيـة، يمكن أن نفترض أن الزاي (العـاديـة) يمكن أن تنطـق مفخمـة. قـد تعني كلمـة **إِزْنَكْنْ** إذن : خيـام القـوم الذين يقومون بالغارات. ومعلوم أن هـذا النوع من الأنشطـة يمـارس بكثرة عنـد رحل الصحراء.[88]

فرضية «ب»

يمكن كـذلـك أن تكـون الكلمـة مركبـة من **أَزْنْ** : «بعث، أرسـل»،[89] **وإِكْنْ** : «فرقة غير نظامية من الرجال تجتمع للقيـام بحركـة حربيـة، قصـد النهب».[90] الكلمـة المركبـة تصبح **أَزْنَـكَ** (= **أَزْنَـكَ**) في حـالـة المفرد، **إِزْنَكْنْ** (= **إِزْنَكْنْ**)، في حـالـة الجمع. فيكون معناها هنا هو : «الذين يقومون بعمليات الغزو أو الغارة».

85) إننا نعرف أن إيزْنَاكَنْ أو صنهاجة ليسوا كلهم رحلا، ومع ذلك فقد يكون الترحال، في الأصل على الأقل، هو نمط العيش الغالب لديهم. انظر ابن خلدون، **تاريخ البربر** (بالفرنسية) ج **II** (1927) ص 3، 67 وما بعدها.

86) انظر :
– Ch. de Foucauld, **op. cit**, t, I, p. 5.

87) نفس المرجع، ج 1، ص 456 ـ 457؛ ج **II**، ص 647؛ كثيرا ما يقع التبادل بين حرف «كَ» وحرف «كَ» المائل إلى الشين عند النطق.

88) انظر على سبيل المثال :
– Ch. de Foucauld, **op. cit**, t. II, p. 647.

89) انظر أعلاه، تعليق 81.

90) انظر :
– Ch. de Foucauld, **op. cit**, t, I, p. 456.

إيكْزُولْنْ أو رعاة المناطق ما قبل ـ صحراوية

إن إيكْزُولْنْ، في نظرنا، يمكن أن يكونوا حفدة الجتول (Gétules) القدامى؛[91] نقول هذا رغم التحفظ الذي أبداه جورج مارسي (G. Marcy).[92] ذلك لأننا نعتقد، كما سبق أن ذكرنا، أن الطريقة التي كتبت بها الأسماء الإفريقية ـ الشمالية باللغة اللاتينية، بما فيها اسم الـ جتول يمكن أن تكون مشوهة.[93]

ولذلك فإننا نقترح التأويل الآتي :

نظرا لكون «الجتول الرحل كانوا يجوبون الصحراء والسهوب المجاورة، ككبار الرحل الحاليين...»،[94] وكون الكرمانت (Les Garamantes) والنزامون (Les Nasamons)، سبقوهم إلى احتلال الصحراء،[95] وكون الجتول كانوا متواجدين في المنطقة ما قبل ـ صحراوية في مجموع شمال إفريقيا إلى الغرب من ليبيا،[96] وكون كلمة «جتول (Gétule) لا تحمل إذن معنى سياسيا، وليس لها كذلك أي معنى عرقي، ما دامت تستعمل بكيفية قطعية لتدل على السكان الجنوبيين من المحيط إلى سيرتا بل حتى إلى جنوب منطقة برقة (La Cyrénaïque) (سترابون، 3، 19 و23)، أي على سكان هم بالضرورة رحل»،[97] وكون إيكَزُلْنْ (جزولة)، كما نعرفهم من خلال المصادر الإسلامية،[98] لا يختلفون عن الجتول، سواء فيما يخص المناطق التي كانوا يحتلونها أو فيما يتعلق بنمطهم في العيش؛ نظرا لكل ذلك نعتقد أن تفكيك اسمهم يعطيه معنى يؤكد الصورة التي أعطاها التاريخ عنهم.

91) انظر :

- G. Camps, **Berbères...**, pp. 112 sqq...

92) نفس المرجع، الفصلة **II**، ص 193.

93) انظر أعلاه، تعليق 51؛ إن تردد جورج مارسي ناتج بالفعل عن كونه لم يفترض وقوع تشويه ممكن في كتابة كلمة «جتول» (Gétules) التي يمكن أن تكون «جتسول» (Getsules) ثم «جسول» (Gesule) أو «كُزُلْ» (Guzules).

94) انظر :

- G. Camps, **Berbères...**, p. 112.

95) نفس المرجع، ص 112 ـ 113.

96) نفس المرجع ص 113 والتي تليها، 115؛ توجد تاهرت بقدم جبل يعرف باسم «جزول» انظر ابن عذاري، **البيان**، ج **I**، ص 25.

97) نفس المرجع، ص 115.

98) انظر ابن خلدون، **تاريخ البربر** (بالفرنسية) 1927، ج **II**، ص 116 ـ 117.

فرضية «أ»

إكَزُلْنْ في حالة الجمع، **أكَزُلْ** في حالة المفرد، قد تكون في الأصل **كَزُلْ**، باعتار أن «أ» الواقعة في أول المفرد، قد تكون حرفا مضافا فقط.[99] يتركب اللفظ من **كُسْ** : «السوق إلى المرعى»،[100] ومن **أُلّ** : «الماعز، أو الحيوانات الصغيرة الأجسام بصفة عامة.[101] **كُسْ** ← **كُزْ** عن طريق الاجهار الممتد إلى سلسلة **أُلّ** ← **أُلْ** بعد سقوط الحركة الأخيرة «ـِ» وفك ادغام «لّ».[102]

كُسْ ← **كُزْ** بالادماج الإجهاري بفعل الاتصال ب «أ». **أُلّ** ← **أُلْ** عن طريق الحذف الذي لا يزال موجودا عند سكان الأطلس الصغير.

نحصل إذن على **كُزُلْ** التي تصبح **إكُزُلْنْ** بعد إضافة لواصق الجمع. وفي هذه الحالة قد يكون المعنى هو : «رعاة، مربو الماعز، مربو الماشية الصغيرة الأجسام».

هنا تجدر الإشارة إلى أن التاركَريين (توارگ) لا يزالون، إلى اليوم، يعينون الناس بمهنهم، أو حسب الصبغة المميزة الغالبة على اهتماماتهم المعتادة. وهكذا يقولون مثلا : «**كِلْ ـ أُلّ** : أي أناس الماعز (وهو لقب التاركَيين السوقة (...)، أناس البقر، أناس الخيل (...)، أناس النوق وأناس الماعز؛ **كِلْ ـ تَمَضِنْتْ**، أناس الرعي (الذين يرعون القطعان؛ الرعاة)».[103]

99) حرف «أ» هذا يمكن أن يسقط في حالات استثنائية، انظر :

- E. Laoust, **Mots...**, p. 482-483;
- A. Renisio, **op. cit**, p. 15.

100) انظر :

- E. Destaing, **op. cit**, p. 208-209.
- Ch. de Foucauld, **op. cit**, t.II, p. 908-909.
- E. Laoust, **Mots...**, pp. 474 sqq.

وعن إدماج كَ > كـ، س > ز، انظر :

A. Renisio, **op. cit**, pp. 33, 46.

101) انظر :

- E. Destaing, **op. cit**, p. 62-63.
- Ch. de Foucauld, **op. cit**, t.II, pp. 534, 787.

102) انظر :

A. Renisio, **op. cit**, p. 31.

نقول مثلا : أَمَ يِسّ **بدل أو مكان : أمَيْن شّغ**

103) انظر :

Ch. de Foucauld, **op. cit**, t.II, p. 787.

فرضية «ب»

لتوسيع حقل الإمكانات التي توفرها اللغة، نقترح هنا تأويلا آخر. وبالفعل فإن لفظ **أَكُزُلْ** وجمعها **إِكُزُلَنْ**، كما تنطق إلى اليوم في منطقة سوس، مركب من **أَكْ** : «ابن...، وتجاوزا، رجل...»[104] (**أَكْ** يقابل **كُـ** (كُوْ) في سوس) ومن **إِسُلَلْ** التي تعني : «سهول فارغة، بدون أودية واضحة، وبعيدة عن الجبال، تتخللها مراعي على شكل بقع غير متسعة، ولكنها كثيرة. تصلح **إِسُلَلْ**، بعد نزول الأمطار، لأن تتبع فيها القطعان العشب الطري، وذلك بسوقها من بقعة عشب إلى أخرى بعد نفاد أعشاب التي كانت فيها».[105] الكلمة المركبة تصبح **أَكْ** + **إِسُلَلْ**. الحركة الأولى في الكلمة الثانية إي (ـِـ) تتحول إلى حركة الضم (ـُـ) بضرورة الإضافة.[106] وبذلك تصبح الكلمة **أَكُسُلَلْ** ← **أَكُزُلَلْ** بعد إجهار سياقي لحرف «س»، ← أَكُزُلْ، بعد سقوط **«أَلْ»** (اللام الأخيرة والحركة التي قبلها)، بحذف مقطعي.[107]

في هذه المحاولة السريعة التي تهدف، قبل كل شيء، إلى إثارة الفضول العلمي عند المؤرخين والباحثين عموما، حتى يتأتى إعادة النقاش، تحت أضواء جديدة، حول كل ما ترك لنا على اعتبار أنه بديهيات، في هذه المحاولة إذن أبرزنا النقط التالية :

1) بما أن إفريقيا الشمالية كانت، منذ أقدم العصور، بلد التقاء الحضارات والثقافات والمؤسسات المتنوعة، فإنه من الضروري أن تؤخذ بعين الاعتبار، عند إنجاز أية دراسة تتعلق بماضيه أو حاضره، ظاهرة المثاقفة التي تكتسي فيه أهمية قصوى.[108]

---

104) نفس المرجع، ج **II**، ص 787.

105) نفس المرجع، ج **III**، ص 1065.

106) في بعض الحالات ينقلب الحرف المتحرك الأول «إ» إلى «أ»، وتوجد كذلك حالات يسقط فيها تماما. فالتاركيون يقولون مثلا : «دَغْ ـ سُلَلْ». انظر :

Ch. de Foucauld, **op. cit,** t.III, p. 1065.

107) ينبغي الإشارة إلى أن الأسماء التي نحن بصددها الآن نقلت إلينا عن طريق الكتابة العربية، ونتيجة لذلك فإنها لا بد أن تكون قد تعرضت لبعض التشويهات الأخرى غير التي هي معروفة.

108) عن هذه المسألة انظر :

- Sabatino Moscati, **Cultural Interactions in Ancient Méditerranean History,** pp. 7-19.

- Maxime Rodinson, **Dynamique de l'évolution interne et des influences externes dans l'histoire culturelle de la Méditerrannée,** pp. 21-30.

المقالان منشوران في : «أعمال المؤتمر الأول لدراسات ثقافات البحر الأبيض المتوسط المتأثرة بالفكر العربي البربري» المشار إليه سابقا.

وفي نفس الكتاب توجد مقالات تستحق أن يرجع إليها، أفكر بصفة خاصة في مقال Jean-Paul Charnay، ومقال Hady Reger Idris ومقال André Adam.

أما مقال الأستاذ محمد أركون : **Les fondements arabo – islamiques de la culture maghrébine,**

المنشور في : « Französisch heute » Juin 1984 pp. 173-183. فهو مقال جد بناء.

هذه الظاهرة ينبغي أن تفهم وتفسر بشكل يشمل كل تشعباتها، مستحضرين في الذهن، بصفة خاصة، صبغة انعدام التساوي الثقافي الذي يتحكم في سير تلك الظاهرة. انعدام التساوي هذا، على ما يبدو، هو أساس دفع إدماجي يستهدف تجاوز المشاكل التي تحول دون الإنجاز النهائي للأمر غير الواقع.

2) ضرورة الشروع في عملية تحقيق التصالح بين الفترتين الكبيرتين من تاريخنا، قصد خلق هذا التوازن الذي ينقصنا ما دمنا نحمل في داخلنا زمنين تاريخيين يتنافيان في الحاضر. ومما يزيد هذا صحة أن «المستوى الأكثر عمقا والمنتمي إلى الفترة الزمنية الأكثر امتدادا، هو مستوى الثقافات السائدة قبل الإسلام في كل مجتمع : توازنات بيئية (إيكولوجية)، أنظمة الإنتاج، والمبادلات، والمعتقدات ولا معتقدات، والمعارف المكتسبة بالتجربة، والتصورات، والسلوكات الجماعية... كل هذا تشير إليه الثقافة الرسمية في الإسلام، كما هو الحال في الغرب، باستعمال كلمات سلبية : بدائي، عتيق، وثني، مشرك، همجي، شعبي، منحرف، مخلف ماضوي، معاد الخلق سحري أسطوري... إن الاثنوغرافيا الاستعمارية في المغرب الكبير، والعقل الوضعي والعلماني في القرن التاسع عشر بصفة عامة، قد استعملوا هذه الكلمات استعمالا دغمائيا أو عقائديا، مفترضين تقدما خطيا للفكر، مع تجاوزات لا رجعة فيها. إنه بتجاهل وتهميش بل وتدمير الثقافات المنعوتة بالشعبية، يكون الفكر العربي والإسلامي الحالي قد تبنى النزعة الوضعية في العلم الكولونيالي، والتي أدينت كثيرا، دون أن تكون لديه قدرة الاعتراف بذلك لنفسه».[109]

3) ضرورة المراجعة والتأكد من القواعد التأويلية لتاريخ بقي سطحيا وفقيرا، بسبب القالب النسبي (الجينيالوجي) الذي يحد من آفاق البحث المغني. ولتحقيق ذلك، توجد وسائل كثيرة ان لم نقل لا تحصى. ينبغي، بصفة خاصة، تتبع تأثير الظروف الجغرافية والمناخية على سلوكات الناس تجاه وسطهم الطبيعي والبشري. إننا نعتقد، بكيفية خاصة، أن أنماط عيش مختلف المجموعات الساكنة بإفريقيا الشمالية، التي فرضتها الطبيعة منذ آلاف السنين، قد ساهمت بحظ وافر في تشكيل السيرورة التاريخية لهذه المجموعات. وبالتالي فإننا نعتقد أن هذه الأنماط هي التي تكون النسيج العميق لتاريخ، ليس في نهاية الأمر، إلا نتيجة لتفاعل دائم بين نمطين للعيش مختلفين ولكنهما متكاملان.

---

109) محمد أركون، نفس المقال أعلاه، ص 178.

4) ضرورة ترك المفهوم المفقر الذي يرفض أو يحتقر استعمال الوثائق غير المكتوبة في إنجاز الكتابة التاريخية. إن عواقب ذلك تتفاقم أكثر حينما يتعلق الأمر بتاريخ الشعوب التي لا تكتب، أو الشعوب التي لا يمثل المكتوب عن ماضيها شيئا أمام مجد وتشابك وغنى تاريخها.

إن الكتابة التاريخية، كما هو معلوم، كانت دائما عملا رسميا، في حين أن التاريخ لا يقتصر على الأنشطة الرسمية. هذه الأنشطة ليست في الحقيقة إلا انعكاسا باهتا لتاريخ كبير ينجز خارج الميادين المفضلة لدى الأخباريين. فإعادة تكوين هذا التاريخ العميق يستلزم إذن البحث عن مصادر أخرى. وتبقى اللغة واحدة من أفضل الوثائق الخليقة بإعطاء معلومات دقيقة وثمينة، تحت أضواء جديدة، عن مشاكل بقيت دون حلول، ولكنها تبدو وكأنها وضحت بصفة نهائية.(110)

في شمال إفريقيا، بلد المثاقفة الممتاز، البلد الذي تتعايش فيه، إلى يومنا هذا، لغتان تاريخيتان أي العربية والأمازيغية، لا يمكننا تجاهل الفوائد الثمينة التي سيجنيها البحث التاريخي من دراسة هاتين اللغتين. إن دراسة الأمازيغية بصفة خاصة ستساعدنا على القراءة والتأويل الصحيحين لهذا العدد الضخم من الوثائق الموشومة إلى الأبد على طول وعرض أرض شمال إفريقيا.(111)

---

(110) قارن مع : .Lucien Febvre, **Histoire et dialectologie**, pp. 249-261

(111) الإشارة هنا إلى أسماء الأماكن (la toponymie) ودراسة أسماء الأعلام (l'onomastique).